

تفسير ابن كثير

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ^ط فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ^ط وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ^ج لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ^ط فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ^ج إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها الله على موسى كليمه [عليه السلام] ومدحها وأثنى عليها ، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الإنجيل ومدحه ، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه ، كما تقدم بيانه ، شرع تعالى في ذكر القرآن العظيم ، الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، فقال : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) أي : بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ، (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) أي : من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان نزوله كما أخبرت به ، مما زادها صدقا عند حاملها من ذوي البصائر ، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : (إن

الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) [الإسراء : 107 ، 108] أي : إن كان ما وعدنا الله على السنة الرسل المتقدمين ، من مجيء محمد ، عليه السلام ، (لمفعولا) أي : لكائنا لا محالة ولا بد . وقوله : (ومهيمننا عليه) قال سفيان الثوري وغيره ، عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس أي : مؤتمنا عليه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المهيمن : الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله . وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك . وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل . وعن الوالي ، عن ابن عباس : (ومهيمننا) أي : شهيدا . وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي . وقال العوفي عن ابن عباس : (ومهيمننا) أي : حاكما على ما قبله من الكتب . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم " المهيمن " يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم ، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها ، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما

قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ؛ فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها . وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال [تعالى] (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر : 9] . فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وابن أبي نجيح عن مجاهد أنهم قالوا في قوله : (ومهيمننا عليه) يعني : محمدا صلى الله عليه وسلم أمين على القرآن ، فإنه صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر ، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضا نظر . وبالجملـة فالصحيح الأول ، قال أبو جعفر بن جرير بعد حكايته له عن مجاهد : وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب ، بل هو خطأ ، وذلك أن " المهيمن " عطف على " المصدق " ، فلا يكون إلا من صفة ما كان " المصدق " صفة له . قال : ولو كان كما قال مجاهد لقال : " وأنزلنا إليك الكتاب مصدقا لما بين يديه من الكتاب مهيمنا عليه " . يعني من غير عطف . وقوله : (فاحكم بينهم بما أنزل الله) أي : فاحكم يا محمد بين الناس : عربهم وعجمهم ، أميهم وكتاييهم (بما أنزل الله) إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك . هكذا وجهه ابن جرير بمعناه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا

محمد بن عمار حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم مخيرا ، إن شاء حكم بينهم ، وإن شاء أعرض عنهم . فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما في كتابنا . وقوله : (ولا تتبع أهواءهم) أي : آراءهم التي اصطلحوا عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله ؛ ولهذا قال : (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن يوسف بن أبي إسحاق عن أبيه ، عن التميمي عن ابن عباس : (لكل جعلنا منكم شرعة) قال : سبيلا . وحدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس : (ومنهاجا) قال : وسنة . وكذا روى العوفي عن ابن عباس : (شرعة ومنهاجا) سبيلا وسنة . وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك والسدي وأبي إسحاق السبيعي أنهم قالوا في قوله : (شرعة ومنهاجا) أي :

سبيلا وسنة .وعن ابن عباس ومجاهد أيضا وعطاء الخراساني عكسه : (شرعة ومنهاجا)
أي : سنة وسبيلا ، والأول أنسب ، فإن الشرعة وهي الشريعة أيضا ، هي ما يبدأ فيه إلى
الشيء ومنه يقال : " شرع في كذا " أي : ابتدأ فيه . وكذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى
الماء . أما " المنهاج " : فهو الطريق الواضح السهل ، والسنن : الطرائق ، فتفسير قوله : (
شرعة ومنهاجا) بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس ، والله أعلم .ثم هذا
إخبار عن الأمم المختلفة الأديان ، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع
المختلفة في الأحكام ، المتفقة في التوحيد ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ، ديننا واحد " يعني
بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله ، وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال
تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [
الأنبياء : 25] وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت) الآية [النحل : 36] ، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون
الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وخفيفا فيزداد في

الشدة في هذه دون هذه . وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة

.قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة : قوله : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) يقول :

سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة : هي في التوراة شريعة ، وفي الإنجيل شريعة ، وفي الفرقان

شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، والدين

الذي لا يقبل الله غيره : التوحيد والإخلاص لله ، الذي جاءت به الرسل .وقيل :

المخاطب بهذا هذه الأمة ، ومعناه : (لكل جعلنا) القرآن (منكم) أيتها الأمة (شرعة

ومنهاجا) أي : هو لكم كلكم ، تقتدون به . وحذف الضمير المنصوب في قوله : (لكل

جعلنا منكم) أي : جعلناه ، يعني القرآن ، (شرعة ومنهاجا) أي : سبيلا إلى المقاصد

الصحيحة ، وسنة ؛ أي : طريقا ومسلكا واضحا بينا .هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن

مجاهد رحمه الله ، والصحيح القول الأول ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (ولو شاء الله

لجعلكم أمة واحدة) فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول : (ولو شاء الله

لجعلكم أمة واحدة) وهم أمة واحدة ، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم ، وإخبار عن

قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ، لا

ينسخ شيء منها . ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم ؛ ولهذا قال تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم) أي : أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ، ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويشيهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله . وقال عبد الله بن كثير : (في ما آتاكم) يعني : من الكتاب . ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها ، فقال : (فاستبقوا الخيرات) وهي طاعة الله واتباع شرعه ، الذي جعله ناسخا لما قبله ، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله . ثم قال تعالى : (إلى الله مرجعكم جميعا) أي : معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أي : فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق ، فيجزى الصادقين بصدقهم ، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق ، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة ، والأدلة الدامغة . وقال الضحاك : (فاستبقوا الخيرات)

يعني : أمة محمد صلى الله عليه وسلم . والأظهر الأول .